الإمام يوسف القرضاوي

الربانية أبرز خصائص التربية الإسلامية

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب: الربانية من أبرز خصائص التربية الإسلامية
الطبعة: الأولى ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م
اسم المؤلف: الإمام يوسف القرضاوي
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٤٨ صفحة ١٤ × ٢٠ سم
رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١٦٣٩٧
الترقيم الدولي: I.S.B.N.
977-225-252-X

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر). غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أى جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأى وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أي نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

دار الكتب والوثائق القومية

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد
إدارة الشئون الفنية

القرضاوي، يوسف القرضاوي، ١٩٢٦-
الربانية من أبرز خصائص التربية الإسلامية / يوسف القرضاوي
القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠٠٩
٤٨ صفحة: ١٢ سم
تدمك X ٢٥٢ ٢٢٥ ٩٧٧
١- التربية الإسلامية
أ- العنوان

٢١٢

مطبعة المدني العربية السعودية بمصر
٦٨ شارع الجيلاية - القاهرة ت: ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

الربانية أبرز خصائص التربية الإسلامية

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبرحمته تتنزل الخيرات والبركات ، وبتوفيقه تتحقق المقاصد والغايات ، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

والصلاة والسلام على البشير النذير والسراج المنير ، الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، معلم الناس الخير ، وهادي البشرية إلى الرشد ، وقائد الخلق إلى الحق ، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، الذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، أولئك هم المفلحون ، ورضي الله عن من دعا بدعوته ، واهتدى بسنته ، وجاهد جهاده إلى يوم الدين .

خير ما أحييكم به أيها الإخوة والأبناء ، بالأصالة عن نفسي ، وبالنيابة عن إخوانكم بالمشرق العربي ، وخصوصا في دولة قطر ،

التي جئتُ ممثلا لها ولجامعتها ، وزائرا سعيدا بالزيارة لهذه الندوة المباركة الطيبة ، خير ما أحييكم به ، تحية الإسلام ، وتحية الإسلام السلام ، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(وبعد)

زياراتي لندوة العلماء بالهند :

سماحة شيخنا العلامة مولانا أبي الحسن ، حفظه الله ورعاه ، ونفع الأمة بعلمه وعمله ، أيها الإخوة الأحبة ، والأبناء الأعزة ، يطيب لي أن ألتقي بأبناء هذه الندوة ، ودار العلوم بها ، للمرة الثالثة أو الرابعة ، فقد أكرمني الله بزيارة هذه الندوة في أول مرة في مهرجانها ، الذي أقامه الشيخ أبو الحسن حفظه الله ، وجمع فيه علماء المسلمين والعرب ، وبعدها زرت هذه الندوة وهذه الدار ، ومعهدها الفكري والعلمي لمدة عشرة أيام ، وذلك في سنة ألف وأربعمائة للهجرة تقريبا ، ثم زرتها زيارة ثالثة ، وهذه هي المرة الرابعة التي أزور فيها دار العلوم وندوة العلماء ، وشيوخها وتلاميذها وأبناءها ، بحضور شيخنا وحبيبنا العلامة أبي الحسن[1] .

---

(١) في الفترة من ١٧-٢١ أكتوبر ١٩٩٦ م .

وما أحب إليَّ أن أزور هذه الدار ، وشيوخها وتلاميذها ، فهي دار عزيزة عليَّ ، وحبيبة إليَّ ، وأتفيأ ظلال الخير والبركة كلما زرتُها ، فأسال الله عز وجل الذي جعل يومها خير من أمسها ، أن يجعل غدها خيرا من يومها ، وأن يُحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأن يُجيرنا جميعا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

الفرق بين التربية التعليم :

واليوم أحدثكم عن التربية الإسلامية وخصائص هذه التربية ، وذلك لأننا أحوج ما نكون إلى التربية ، لا يكفينا مجرد التعليم ، فالتعليم يتعلق أكثر ما يتعلق بالرؤوس ، والتربية تتعلق أكثر ما تتعلق بالنفوس ، ولا يكفي أن تحشو رأسك بالمعارف والمعلومات ، إذا لم يكن وراء هذه الرأس نفس ، زكيَّة .

صلاح الأفراد والمجتمعات بتغيير النفس :

الأمم إنما تتغيَّر بتغيُّر أنفسها ، فصلاح المجتمعات بصلاح أفرادها ، وصلاح الأفراد بصلاح أنفسها ، الماركسيون أو الشيوعيون عندهم قاعدة تقول : (غيِّر الاقتصاد ، أو غيِّر علاقات الإنتاج يتغيَّر التاريخ) ، ونحن المسلمين عندنا قاعدة أخرى تقول : (غيِّر نفسك يتغيَّر التاريخ) ، أو بالتعبير القرآني غيِّر ما بنفسك يتغيَّر التاريخ ، وذلك أنَّ الله تعالى قرر هذه القاعدة النفسية الاجتماعية الأساسية ، حينما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ

حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:١١) ، لهذا كان تغيير النفس ـ أو ما بالنفس ـ أمرا أساسيا ، لا يكفي أن تحشو رأسك بالمعلومات إذا لم تُزكِّ نفسك، فلاحك في الدنيا والآخرة مرهون بتزكية النفس ، والقرآن الكريم يقول : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس:٧-١٠).

التعليم والتزكية من مهمة النبي ﷺ :

كان من شُعب رسالة النبي ﷺ ، التعليم والتزكية ، كما جاء ذلك في أربع آيات من كتاب الله ، في سورة البقرة وآل عمران والجمعة ، في سورة البقرة يدعو سيدنا إبراهيم ربه فيقول : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ (البقرة:١٢٩) ، وفيها : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٥١)، وفي سورة آل عمران يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران:١٦٤)، وفي سورة

الجمعة يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(الجمعة:٢)، يزكّيهم ويعلّمهم .

التزكية في اللغة العربية :

والتزكية أمر أخص من التعليم ، وأعمق من التعليم ، فالتزكية في اللغة العربية ، مأخوذة من زكا ، ومعنى زكا : أي طهُر ونما ، و(الفقهاء) حينما يُعرِّفون الزكاة يقولون : الزكاة في اللغة : الطهارة والنماء ، فمعنى ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ : يطهرهم وينمِّيهم ، يطهرهم من الشرك ، وينمِّيهم بالتوحيد ، يطهِّرهم من النفاق ، وينمِّيهم بخصال الإيمان ، فهي تطهير وتنمية ، كما قال (الصوفية): تخلية وتحلية ، تخلية من الرذائل ، وتحلية بالفضائل ، فهو ﷺ مزكٍ ومعلم .

في البلاد العربية كانت الوزارات التي تقوم على التعليم تسمَّى قديما : (وزارات المعارف) ، ثم وجدوا أنَّ المعرفة وحدها ليست كافية ، وأنَّ مهمتها يجب أن تكون أشمل وأعمق من هذا ، فغيَّروها إلى (وزارات التربية) ، فالمهم أن تربي الإنسان لا أن تملأ رأسه وذهنه بالمعلومات والمعارف فقط . لهذا كنا في حاجة إلى التربية عموما ، والتربية الإسلامية خصوصا ، فنحن لسنا في حاجة إلى أي تربية ، بل نحن في حاجة إلى تربية إسلامية ، تربية

قائمة على أساس الإسلام ، تستمدُّ أصولها من مصادر الإسلام ، من القرآن والسنة أساسا ، ومن شروح القرآن والسنة ، من أئمة الأمة الثقات ، وعلمائها الربَّانيِّين الراسخين في العلم .

التربية ضرورية لتنهض الأمة :

نحن في حاجة إلى هذه التربية ، لا يمكن أن تنهض أمتنا ، وتقوم بعبء هذه الرسالة ، التي كلفها الله بالعمل بها والعمل لها ، والدعوة إليها ، والجهاد في سبيلها ، لا يمكن أن تقوم بكل ذلك إلا زُكِّيتْ ورُبِّيتْ تربية سليمة قويمة ، كما فعل إمام المربين ، ورسول رب العالمين ، محمد ﷺ ، وخير التلاميذ الذين تربَّوا في المدرسة المحمدية ، وتخرَّجوا في الجامعة النبوية ، هم أصحاب رسول الله ﷺ ، الذين هم مربو الأمم ، فالله تعالى هو الذي ربَّى رسوله ﷺ ، وهو الذي أدَّبه فأحسن تأديبه ، وعلَّمه فأحسن تعليمه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (النمل:٦)، وكما قال : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ (النجم:٥).

تلاميذ المدرسة المحمدية :

فربَّى الله رسوله ليُربِّي به الصحابة ، ثم ربَّى الصحابةُ الأممَ بعد ذلك ، وهذا الجيل النموذجي ، الجيل المثالي ، هو خير الأجيال ، أفضل التلاميذ ، خير القرون ، كما صح في الحديث : عن عبد الله

ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «خير أمتي القرن الذين يلوني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم»[1].

فهم خير الأجيال ، ويليهم في الخيرية ، الجيل الذي تربى على أيديهم وأخذ منهم ، ثم الجيل الذي بعد ذلك ، فالصحابة هم الجيل المثالي الذي تربي في المدرسة المحمدية ، فإذا أردنا التربية كما يحبها الله ورسوله ، وكما ينشدها الإسلام ، فلننظر إلى المربي محمد ﷺ ، وإلى تلاميذ هذه التربية وخريجيها ، وهم أصحاب النبي ﷺ ، الذي أثنى الله عليهم في كتابه ، في أواخر سورة الأنفال ، بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (الأنفال:٧٢) . ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال:٧٤).

وفي سورة التوبة ، بقوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ (التوبة:١٠٠).

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٣)، كما رواه أحمد (٣٩٦٣)، والترمذي في المناقب (٣٨٥٩)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٦٢) .

وفي أواخر سورة الفتح ، بقوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ (الفتح:٢٩) .

وفي سورة الحشر ، بقوله عز وجل :﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر:٨،٩).

وأثنى عليهم النبي ﷺ في أحاديثه ، فهم الذين نقلوا إلينا القرآن ، ورووا لنا السُّنن ، وهم الذين نشروا الإسلام في العالم ، لولاهم ما دخلنا نحن الإسلام ، لولا الصحابة الذين حملوا المصاحف في أيديهم ، وذهبوا بالإسلام إلى آفاق العالم ، ما عرفنا نحن الإسلام ، لولا همة عمرو بن العاص ومن معه من الصحابة ، ما عرفنا نحن المصريين الإسلام ، ولولا عقبة بن نافع من الصحابة ، ما عرفت أفريقيا الإسلام ، وهكذا ، فهؤلاء هم التلاميذ .

نحن في حاجة إلى أن نعرف التربية الإسلامية المحمدية ، والحديث عن التربية الإسلامية يطول ويطول ، فنحن في حاجة

إلى أن نتحدث عن المربِّي ، ونتحدث عن المربَّى ، ونتحدث عن المربَّى له ، أي عن أهداف التربية ، ونتحدث عن المربَّى به ، أي عن وسائل التربية وأساليبها ، وعن أنواع التربية المختلفة ، وهى بضعة عشر نوعا[1]، وكل هذا حديث يطول ، وإنما أحببتُ أن أحدثكم عن أهم وأبرز خصائص التربية الإسلامية كما ينشدها هذا الدين العظيم .

خصائص التربية الإسلامية :

أهم وأبرز خصائص التربية الإسلامية ، وأعنى بالخصائص ، الخصائص التي تميِّز هذه التربية عن غيرها من الفلسفات التربوية الأخرى ، لأن هذه التربية متميِّزة ، فهي ليست كتربية اليهود ، ولا كتربية النصارى ، ولا كتربية الهندوس ، ولا كتربية البوذيين ، ولا كتربية الشيوعيين ، ولا كتربية الرأسماليين ، هذه تربية نسيجة وحدها ، تربية إسلامية ، تربية تخالف كل هذه الألوان والأنواع من التربية .

أبرز خصائص التربية الإسلامية الربانية :

لهذه التربية خصائص تميِّزها ، أبرز وأول هذه الخصائص ، هو ما نسميه : (الربَّانية) : وهذه كلمة استخدمها سماحة الشيخ

---

(١) هناك التربية الدينية ، والتربية العقلية ، والتربية الخلقية ، والتربية البدنية ، والتربية العلمية ، والتربية المهنية ، والتربية السياسية ، والتربية الاقتصادية ، والتربية العسكرية ، والتربية الفنية ، والتربية الجنسية ، وغيرها .

أبي الحسن حفظه الله ، وجعلها عنوانا لكتاب له ، لعلكم قرأتموه ، ولا بد أن تكونوا قرأتموه ، فالمفروض أن تقرءوا كتب الشيخ ، سمّى الشيخ كتابه : (ربانية لا رهبانية) ، هذه الربانية التي جاء بها الإسلام ، هي أن تكون موصولا بالرب تبارك وتعالى .

كلمة (ربانية) مصدر صناعي ، منسوب إلى الربِّ تبارك وتعالى ، مصدر صناعي زيدت فيه الألف والنون ، كما يقال : (روحانية) نسبة إلى الروح وكما يقال : (نورانية) نسبة إلى النور ، فالربَّانية نسبة إلى الربّ جل جلاله ، وفي القرآن الكريم :﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (آل عمران:٧٩).

ماذا تعني الربانية ؟

الربَّانية تعني : أن تكون موصولا بالله ، أو مع الله تبارك وتعالى ، وهذه المعية هي أساس ما سماه النبي ﷺ : (الإحسان) ، حينما سأله جبريل في الحديث المشهور : « ما الإحسان؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] . لا بد أن تشعر برقابته عز وجل عليك ، وأنه مطلع عليك ، يسمع ويرى ، أن تشعر أن الله يسمع ويرى ، ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الإيمان (٥٠) ، ومسلم في الإيمان (٩) ، كما رواه أحمد (٩٥٠١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤)، عن أبي هريرة .

إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ (المجادلة:٧).

استشعار رقابة الله عز وجل :

الشعور بمعية الله تبارك وتعالى ، أن تستشعر في كل قول تقوله ، جهرا كان أو سرا ، في كل عمل تعمله ، خيرا كان أو شرا ، في كل خُطوة تخطوها ، بحرا كانت أم برا ، في كل خطرة من خطراتك ، في كل سكنة من سكناتك ، في كل حركة من حركاتك ، تستشعر عين الله تعالى وهي تراك .

لذلك حينما راود أحدُ الشباب إحدى الفتيات عن نفسها أبت ، فقال لها : ويحك ممن تخافين ولا يرانا إلا الكواكب . فقالت له : ويحك وأين مكوكبها؟![1] تنظر إلى الكوكب وتنسى مكوكبه ، ومدبر أمره ، لا بد أن تشعر أن الله معك ، ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (الحديد:٤)، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:١١٥)، في السفر ، في الحضر ، في المشرق ، في المغرب ، في الخلوة ، في الجلوة ، في البيت ، في الطريق ، في المكتب ، في المكتبة ، وحدك أو مع الناس ، الله يراك ، الله معك .

---

(١) رواه البيهقي في الشعب باب الخوف من الله (٨٧٩) .

الشعور بمعية الله يجعل المسلم يقظ الحس :

الشعور بمعية الله يجعل المسلم يقظ الحس ، يقظ الضمير . الناس ينظرون إلى الناس ، هل يراهم أحد أو لا يراهم ، هل يسمعهم أحد أو لا يسمعهم؟ ويقول بعضهم لبعض : إن للحيطان آذانا ، الجدران لها آذان تسمع فاحذر ، ولكن المسلم لا يحذر من الحيطان ، ولا ممن وراء الحيطان ، ولكن يحذر من الواحد الدَّيَّان ، ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (الملك:١٣)، هذا ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان المسلم ، الشعور بمعية الله .

مصدر القوة في مواجهة الأعداء :

الشعور بمعية الله يعطي الإنسان قوة في مواجهة الأعداء والطواغيت ، ومتاعب الحياة ، وكوارث الدنيا ، إنه معتصم بالحصن الحصين ، ولائذ بالركن الركين ، نجد هذا في قول الله لسيدنا موسى وسيدنا هارون حينما بعثهما إلى فرعون : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (طـه:٤٣-٤٦)، هـذا أعطاهما طمأنينة بالغة ، أعطاهما روح القوة ، وقوة الروح ،

ولذلك حينما أمر الله موسى عليه السلام أن يَسْري بقومه ليلا ، ويترك مصر ، وذهب بقومه حتى وصلوا إلى البحر ، وجدوا البحر أمامهم ، وفرعون وجنوده من خلفهم ، أين المفر؟ وأين الوزر؟ هنا قال أصحاب موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ (الشعراء:٦١)، سيدركنا فرعون بجنوده لا محالة ، ويفعل بنا الأفاعيل ، فماذا قال موسى عليه السلام لهم؟ قال في ثقة المؤمن ، وإيمان الواثق : ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء:٦٢).

ثقة في وعد الله :

وفعلا ثقته بالله لم تذهب هباء ، فكانت النتيجة أن الله أوحى إليه ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ (الشعراء:٦٣) ، شيء لم يخطر بباله ولا ببال أحد ، اضرب بعصاك البحر . وماذا تفعل العصا بالبحر ؟! فضرب بعصاه البحر ، ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الشعراء:٦٣) ، وأنجى الله موسى ومن معه أجمعين ، وأغرق الآخرين ، غرق فرعون وجنوده ، ونجا موسى ومن معه من المؤمنين ، ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ .

وما أشبه هذه الكلمة بكلمة نبينا وإمامنا محمد ﷺ ، حينما أوى إلى الغار في رحلة الهجرة ، اختبأ هو وصاحبه أبو بكر في الغار ، وظل المشركون يبحثون عنه حتى وصلوا إلى الغار ،

ووقفوا على باب الغار ، وقال أبو بكر مشفقا وخائفا على رسول الله ﷺ وعلى الدعوة : يا رسول الله ، لو أنَّ أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا . فقال : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما »[1]. لو كلف أحدهم خاطره أن يطأطئ وينظر تحت قدميه لاستطاع أن يرى محمدا وصاحبه داخل الغار ، فماذا قال له النبي ﷺ؟ قال له :« يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، لا تحزن إن الله معنا ، ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٤٠).

الصدق مع الحق والخُلُق مع الخَلق :

وهكذا فإن المسلم يستشعر رقابة ربه ، يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يعلم أن الله يراه ، هذه المعاني الربانية هي حقيقة التصوف الإسلامي ، التصوف ليس أشكالا ولا مراسم ، لُباب التصوف ، كما عبَّر عنه بعض الصوفية الكبار : الصدق مع

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١) كلاهما في فضائل الصحابة، وأحمد (١١)، والترمذي في التفسير (٣٠٩٦) عن أبي بكر الصديق .

الحق تبارك وتعالى ، والخُلُق مع الخلق[1]. هذا هو التصوف ، بل هذا هو الدين كله ، كما أشارت إليه آخر آية في سورة النحل ، وهي قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل:١٢٨)، فهم مع الله بالتقوى ، ومع خلقه بالإحسان ، التقوى والإحسان .

المؤمن دائم الرقابة على نفسه :

جاء إلى بعض الصالحين أحد تلاميذه ، وقال له أوصني وصية موجزة وجامعة ، فقال له : عليك بآخر آية من سورة النحل .

لا بد من هذا الاستشعار ، وهذا الاستشعار يجعل العبد دائم الرقابة على نفسه ، الرقابة على عمله ، والرقابة على أهدافه وبواعثه ونيته ، لا يكفي أن يكون العمل صالحا ، بل لا بد أن يكون صالحا وخالصا ، كما قال سليمان عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ (النمل:١٩)، صالحا ترضاه ، ولا يُرضى العمل الصالح إلا إذا كان خالصا لوجه الله ، لهذا بدأ الإمام البخاري جامعه الصحيح بهذا الحديث المشهور : « إنما الأعمال

---

(١) انظر : طبقات الشافعية للسبكي (١٠/٢٩٥) .

بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه »[1].

يهاجر الناس جنبا إلى جنب، وهذا يُعتبر مهاجرا في سبيل الله، وهذا يُعتبر مهاجرا للدنيا ، كالذي سماه الصحابة مهاجر أم قيس،[2] أم قيس التي كان يتوق إلى الزواج بها ، هاجرت فهاجر وراءها ، لم يهاجر لله ورسوله . المهم هو النية ، أن تصدق النية ، أن تُجرّد بواعثك من رغبات الدنيا ، وشهوات النفس ، وتجعلها لله عز وجل ، وهذا أمر يحتاج إلى مجاهدة ، ليس بالأمر السهل ، هو يحتاج من المسلم أن يجاهد نفسه ، حتى قال بعض الصالحين : طوبى لمن صحت له خُطوة لا يريد بها إلا وجه الله عز وجل[3].

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، كما رواه أحمد في المسند (١٦٨)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١)، والترمذي في الجهاد (١٦٤٧)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، عن عمر .

(٢) رواه الطبراني (١٠٣/٩) عن ابن مسعود، وقال الهيثمي في المجمع (١٢٠/٢): رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح، والمزي في تهذيب الكمال (١٢٦/١٦) وصحح إسناده، وكذا الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥٩٠/١٠) وقال ابن حجر في الفتح (٣٢/١) : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٣) انظر : الإحياء (٣٧٨/٤) .

لا تدري يا تُرى أنا جئتُ إلى هنا ، إلى ندوة العلماء لله ؟ أم جئتُ لأتنفسَّح وأتنزَّه في رحاب الهند ، وأستمتع برؤية الشيخ ، وتلاميذ الشيخ ، وأبناء الشيخ ؟ هل خالطت هذه النية نيات دنيوية أو لا ؟ ما أكثر ما يُدخل الشيطان على الإنسان بواعث دنيوية أو شخصية عاجلة ، وهو لا يشعر ولا يدري .

رضا الله غاية الغايات :

لعلكم قرأتم أو سمعتم عن الشيخ حسن البنا ، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين في مصر وفي العالم كله ، وكان رجلا ربانيا ، وكان من الشعارات التي علمها لأتباعه وأصحابه ، يرددونها ويهتفون بها ، بل أول هذه الشعارات : (الله غايتنا) ، ما معنى الله غايتنا؟ يعني نحن نريد وجه الله ، رضوان الله تعالى ومثوبته ، هي غاية الغايات ، هناك غايات قريبة ، وهناك غاية بعيدة ، الغاية القصوى ، نسميها غاية الغايات .

بعض الناس تقول له : لماذا تتعلم؟ يقول : والله أتعلم لأحصل على شهادة .

ولماذا تحصل على شهادة ؟ قال : لأحصل على وظيفة .

ولماذا تحصل على وظيفة ؟ قال : لأحصل على المال . طيب ، ولماذا تحصل على المال ؟ وهكذا ، فلا بد أن تكون هناك غاية

أخيرة ، الغاية الأخيرة عند الإنسان المؤمن يجب أن تكون هي رضا الله سبحانه وتعالى ، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ (النجم: ٤٢).

الصالحون قديما أخذوا كلام أبي فراس الحمداني ، الذي خاطب به سيف الدولة الحمداني ، وخاطبوا به الله عز وجل ، فقد كان يقول أبو فراس لسيف الدولة :

فليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

وليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب[1]

هذا لا ينبغي أن يُخاطَب به إلا رب العزة تبارك وتعالى ، ولا يكون تعلُّق الإنسان المؤمن إلا بربه تبارك وتعالى ، فرضا الله غاية الغايات .

يقولون : الأحمق يعيش ليأكل ، والعاقل يأكل ليعيش ، الإنسان الأحمق يعيش ليأكل ، كما قال الله : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (محمد:١٢)، بينما العاقل يأكل ليعيش ، ولكن سيظل هناك سؤال وهو : ولماذا يعيش العاقل؟ هل العيش في حد ذاته غاية؟ .

---

(١) البيت الأخير للمتنبي في مدح سيف الدولة .

العيش ليس غاية ولكنه وسيلة ، فلماذا يعيش الإنسان إذن؟ فنقول : إذا كان الأحمق يعيش ليأكل ، والعاقل يأكل ليعيش ، فإن الإنسان المؤمن يعيش ليعبد الله تعالى ، ويقوم بخلافته في الأرض ، فالغاية هي الله ، كما قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾(الذاريات:٥٦-٥٨).

خُلق الكون للإنسان وخُلق الإنسان للرحمن :

إن الله خلق كل ما في هذا الكون للإنسان ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية:١٣) ، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان:٢٠)، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (إبراهيم:٣٢-٣٤) ، كل ما في هذا الكون مسخر من الله تبارك وتعالى للإنسان ، إذا كان الكون كله مسخرا للإنسان ، فالإنسان مسخَّر لمن؟ إذا كان الكون كله مسخرا للإنسان ، فالإنسان مسخَّر لله ، خلق الله الكون

للإنسان ، وخلق الإنسان للرحمن ، فالإنسان لربه ، ولا ينبغي أن يكون إلا لله .

إنَّ خطيئة الشرك الكبرى هي قلب الأوضاع والحقائق ، فجعل الإنسان الذي سُخِّر له الكون عابدا لهذا الكون ، يعبد الأشجار ، أو الأنهار ، أو الأبقار ، يعبد الشمس أو القمر ، يعبد الوثن أو الحجر ، يعبد البشر ، وهو لم يُخلق إلا لعبادة الله ، وهذا هو ما جاء به الإسلام .

العبودية لله غاية الحرية :

الإسلام جاء يُحرِّر الإنسان من العبودية للأشياء ، والعبودية للأهواء ، والعبودية للأوهام ، والعبودية للطبيعة ، والعبودية للأفلاك ، والعبودية للحيوان ، والعبودية للإنسان ، لكي يكون عبدا لله وحده ، وهذه منتهى الحرية ، العبودية لله وحده هي غاية الحرية ، أن يتحرَّر الإنسان من كل ما سوى الله ، ومن كل من سوى الله ، أن لا يُعفِّر جبهته إلا لله ساجدا ، ولا يحني ظهره إلا لله راكعا ، هذه هي الحرية الحقيقية ، هذه هي السيادة ، فالذي يطلُبه الإسلام من الإنسان المؤمن ، هو أن يتحرر من كل شيء إلا من العبودية لله عز وجل ، فتكون صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين ، لا شريك له .

الأدنى يخدم الأعلى :

كل ما في الوجود الذي نراه في الكون مراتب ، يخدم بعضها بعضا ، الأدنى يخدم الأعلى ، فنجد الجماد يخدم النبات ، يعني الأرض وعناصرها من الأملاح والمعادن وغيرها ، والمطر والهواء وغير ذلك ، كله يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان ، لأن الحيوانات تأكل هذا النبات ، ﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ﴾ (طه:٥٤)، وكلٌّ من النبات والحيوان والجماد يخدم الإنسان ، كما قال الله تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴾ (النازعات:٢٧-٣٣)، والإنسان مَن يخدم؟ لا يجوز للإنسان أن يخدم من دونه ، لا يجوز للإنسان أن يخدم الكون ، لأن الكون يخدم الإنسان ، ولا يجوز للإنسان أن يخدم مثله ، فهما سواء ، وإنما يخدم الإنسان الله تبارك وتعالى ، فلا ينبغي للإنسان أن لا يكون إلا في خدمة ربه الأعلى ، ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (الأعلى:٢،٣) .

الربانية ارتقاء بالإنسان :

الربانية ترتقي بالإنسان ، من حضيض الطين إلى أفق الروح ، تعلمون أن الإنسان مخلوق مزدوج الطبيعة ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم ، في الآيات الكثيرة في خلق آدم عليه السلام ، كقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (الحجر:٢٨،٢٩)، قبضة من طين ، ونفخة من روح الله ، والذي جعله يستحق سجود الملائكة له ليس هو العنصر الطيني ، الإنسان هو هذا الجانب الطيني ، وهذا الجانب الروحي ، الجانب الأرضي ، والجانب السماوي ، ولا بد أن نعترف بهذين الجانبين كليهما ، وهذه مزية الإسلام ، وهي خصيصة أخرى من خصائص التربية ، وهي التوازن أو الاعتدال ، الطين له حقه ، والروح لها حقها ، « إن لبدنك عليك حقا ، وإن لربك عليك حقا »[1].

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١٩٧٤)، ومسلم (١١٥٩) كلاهما في الصوم، كما رواه أحمد (٦٨٦٢) ، والنسائي في الصوم (٢٣٩١) ، عن عبد الله ابن عمرو بن العاص .

ما الذي يهبط بالإنسان إلى حضيض البهائم ؟

قد يهبط الإنسان إلى الطين والتراب ، فينزل إلى أسفل ، والعياذ بالله ، يَسفُل ويَسفُل ، حتى يصبح في الدرك الأسفل ، أصبح طينا لا قيمة له ، تراب خُلق من التراب ، ويأكل من التراب ، ويمشى على التراب ، ما ارتقى عن التراب ، كما قال الله تعالى عن بعض الناس : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ (الأعراف:١٧٥،١٧٦)، كان يمكن أن ترتفع به الآيات التي آتاه الله وترتقي به ، ولكن للأسف لم ترتق به ، ولكنه هبط وأخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فالإنسان يمكن أن يرقى إلى أعلى عليين ، ويمكن أن يهبط إلى أسفل سافلين ، إما أن ينزل إلى حضيض البهائم ، وإما أن يَرقى إلى أُفُق الملائكة ، الله تعالى قال عن قوم : ﴿ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٩)، ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان:٤٣،٤٤).

الغافلون أضل سبيلا من الأنعام :

لماذا كان الغافلون أضل سبيلا من الأنعام ، وأحط من البهائم؟ لأن البهائم لم تؤتَ ما أوتي الإنسان ، الإنسان أعطاه الله العقل الذي به يفكِّر ، والإرادة التي بها يُرجِّح ، والقدرة التي بها يُنفِّذ ، وأعطاه المواهب المختلفة ، وسخر له ما في السموات وما في الأرض ، وأنزل عليه الكتب ، وأرسل إليه الرسل ، فالإنسان له هدايتان ، هداية من داخله ، وهداية من خارجه ، أما الأنعام فإذا ضلت فهي معذورة ، لأنها لم تؤتَ شيئا مما آتاه الله الإنسان .

الأنعام تقوم بمهمتها خير قيام :

ومن ناحية أخرى ، فإن الأنعام لها مهمة في الحياة ، لم تتمرد على القيام بها ، ولم ترفضها ، ما رأينا حمارا تمرد ورفض أن يُركَب ، وما رأينا بقرة تمردت أن تُحلَب ، بل نجد ذا الضرع يُحلب ، وذا الظهر يُركب ، فالأنعام والبهائم والمواشي تقوم بمهمتها خير قيام ، تخدمنا وهي صحيحة ، ونأكلها وهي ذبيحة .

أما الإنسان فهو الذي لم يؤد مهمته التي خُلق من أجلها ، الإنسان له رسالة خلقه الله من أجلها ، ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ (الذاريات:٥٦)، فإذا لم يعبد الإنسان الله عز وجل ،

وإذا لم يقم بخلافته في الأرض ، تكون الأنعام أفضل منه ، وأهدى سبيلا ، لأنها أدت مهمتها وهو لم يؤد مهمته ، ﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٩).

عدو الإنسان الغفلة :

أشار القرآن إلى مفتاح القضية ، وسر هذا البلاء الذي أصيب به هؤلاء ، فبين أنه هو الغفلة ، الغفلة عن الله ، الغفلة عن الدار الآخرة ، الغفلة عن حقيقة الإنسان ، هؤلاء لم يعرفوا ما هو الإنسان ، لذلك ضلوا السبيل .

الربّانية التي نريدها ، أن يكون عند هذا الإنسان الحس المُرهف ، الذي يراقب به نفسه ، يضع نفسه على مشرحة التحليل يُحللها ، ويُحلل بواعثها ، ويعرف أيريد وجه الله أم يريد وجوه الناس؟ وهو في نفس الوقت يُحاسب نفسه ، يحاسبها قبل العمل ، ويحاسبها أثناء العمل ، ويحاسبها بعد العمل ، هذا هو الذي ينبغي للإنسان المؤمن .

النفس الإنسانية في القرآن الكريم :

حدّثنا القرآن الكريم عن النفس على لسان امرأة العزيز ، فقال عز وجل : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا

﴿ مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (يوسف:٥٣)، والصحيح أنَّ هذا من كلام امرأة العزيز ، وليس من كلام يوسف ، لأن كلام يوسف انتهى قبل ذلك ، ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ (يوسف:٥٣)، الأصل في النفس إذا تُركت وغرائزها وأهواءها وميولها فإنها تأمر بالسوء ، بل إن التعبير القرآني يفيد أنها كثيرة الأمر بالسوء ، كما تشير إليه كلمة (أمارة) ، فهي تُكثر من أمر الإنسان بالسوء ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (الطور:٣٢).

حاجة النفس إلى المحاسبة :

النفس تأمر بالسوء والشر والضلال ، وعلى الإنسان أن يراقبها ، ويزكيها ـ كما قلنا ـ ويحاسبها ، كما جاء عن عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم[1]. قبل أن تُنشر الدواوين ، وتُنصب الموازين ، ويقوم جميع الخلق لله رب العالمين ، انصب أنتَ الآن ميزانك ، وانشر ديوانك ، وحاسب نفسك قبل الحساب ، اسأل نفسك قبل أن يصير السؤال إلى غيرك ، جاء في الحديث الذي رواه معاذ وأبو برزة ، رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٣٠٦)، وابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٠٠) .

عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه فيم فعل ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه»[1].

فحضِّر للسؤال جوابا ، واسأل نفسك قبل أن يصير السؤال إلى غيرك ، وحاسب نفسك بنفسك ، حاسبها بدقة ، لا تغش نفسك ، لذلك قال ميمون بن مهران ، من علماء التابعين رحمه الله ، قال : المؤمن أشدُّ حسابا لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح[2]. هو يحاسب نفسه على الصغيرة والكبيرة .

المؤمن يخاف الله ويحذر ذنوبه :

بعض الناس يستسهل بعض الذنوب ويقول : هذا ذنب بسيط ، ليت كل الذنوب التي أفعلها مثل هذا . وهذا ما حذر منه السلف رضوان الله تعالى عليهم ، وفي الحديث الذي رواه البخاري ، عن ابن مسعود : « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤١٧)، وقال : حسن صحيح، والدارمي في المقدمة (٥٣٧)، وأبو يعلى (٧٤٣٤)، عن أبي برزة، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٤٦). وحديث معاذ رواه البزار (٢٦٤٠)، والطبراني (٦٠/٢٠)، وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني والبزار بنحوه، ورجال الطبراني رجال الصحيح ، غير صامت بن معاذ وعدي بن عدي الكندي ، وهما ثقتان (٦٢٧/١٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٩) .

أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه فقال به هكذا»[1].

وجاء عن أنس وأبي سعيد الخدري ، أنهم كانوا يقولون لتلاميذهم من التابعين : إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر ، كنا نعدها في عهد النبي ﷺ من الموبقات[2]. لأن صحوة القلوب والضمائر في العهد النبوي كانت تنظر إلى الأشياء بميزان دقيق ، بل تنظر إليها بما يسمى في العلوم الحديثة (الميكروسكوب) ، وهو جهاز يكبر الأشياء الصغيرة ويضخمها ، فهم يرون الصغائر موبقات ، والكبائر مهلكات ، وهذا من رهافة حسهم الديني ، فهم يعيبون على تلاميذهم وأتباعهم أن الأمور هانت عندهم ، فماذا نقول نحن في عصرنا؟ .

ذهب بعض تلاميذ الصالحين إلى شيخهم ، يزورونه في مرضه ، فوجدوه يبكي ، فقالوا له : ما يبكيك؟ والله إنك لتفعل كذا وتفعل كذا ، وتفعل كذا ، والله ما رأينا حرمة انتهكتَها ، ولا فريضة

---

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٨)، وأحمد (٣٦٢٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٧) .

(٢) حديث أنس : رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٢)، وحديث أبي سعيد : رواه أحمد (١٢٦٠٤) وقال مخرجوه : صحيح ، وهذا إسناد حسن .

ضيعتها . فقال لهم : والله ما أبكي على فريضة ضيعتُها ، ولا على حرمة انتهكتُها ، ولكن أبكي لأني أخشى أن أكون قد أتيتُ ذنبا أحسبه هينا وهو عند الله عظيم . هذا هو الذي كانوا يخشونه .

الإنسان المسلم ينبغي أن تصل رهافة حسه إلى حد أن يحاسب نفسه على الكبيرة والصغيرة ، كما يقول الشاعر :

خلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرنَّ صغيرة إنَّ الجبال من الحصى[1]

الجبال من الحصى ، فالجبل مجموع حصيات ، والبحر مجموع قطرات ، فلا تستصغرنَّ معصية ، والحساب ينبغي أن يستمر دائما مع النفس الإنسانية ، محاسبة ومجاهدة مع النفس .

أشد أنواع الجهاد جهاد النفس :

الإمام الغزالي في كتابه (منهاج العابدين)[2] ، يذكر أنَّ جهاد النفس هذا شديد ، لماذا؟ قال : لأمرين :

أولهما : أن النفس عدو محبوب ، وحينما يكون عدوك محبوبا تتساهل معه ، ولا تحترس منه ، أعدى أعداءك نفسك التي بين

---

(١) من شعر : ابن المعتز .
(٢) صـ ١١٩ .

جنبيك ، النفس الأمارة هذه هي محبوبة الإنسان ، كل إنسان يحب نفسه ، ويريد أن يتَّبع هوى نفسه ، ويريد أن يتبعها ويضعف أمام أهوائها وميولها ، فهي عدو محبوب ، وهذا خطر .

الأمر الثاني : أنها عدو من الداخل ، حينما يكون العدو من الخارج أو اللص ، تستطيع أن تُغلق الباب وتُحْكِم إغلاقه ، فلا يمكنه أن يدخل عليك ، ما دام الباب قويا ، والإغلاق محكما ، ولكن المشكلة إذا كان اللص من داخل الدار ، ويعيش معك ، من هنا يقول الشاعر الصالح :

نفسي إلى ما ضرني داعي ... تُكْثر آلامي وأوجاعي
كيف احتيالي من عدوي ... إذا كان عدوي بين أضلاعي[1]

وأقول : إن الله ابتلى الإنسان بأعداء أربعة : النفس والشيطان والدنيا والخلق ، لهذا يقول الشاعر الآخر :

إني بُليتُ بأربع يرمينني ... بالنبل عن قوس له توتير
إبليس والدنيا ونفسيَ والورى ... يا رب أنت على الخلاص قدير

أربع أعداء وأنت محتاج إلى مجاهدة هؤلاء جميعا ، وأول ما ينبغي أن تجاهده ، نفسك التي بين جنبيك ، حتى تنتقل من النفس الأمارة إلى النفس اللوامة ، بالمجاهدة والمحاسبة تنتقل

---

(١) من شعر : ابن الأحنف .

نفسك من النفس الأمَّارة بالسوء إلى النفس اللوامة ، التي جاء القسم بها ، في سورة القيامة ، ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ (القيامة:١،٢)، أي الأمر أوضح من أن يُقسم به .

النفس اللوامة هي التي تكثر أن تلوم صاحبها ، فكلمة (لوَّامة) صيغة مبالغة أيضا ككلمة (أمَّارة) ، فالنفس اللَّوامة تكثر من لوم صاحبها ، إذا أقبل على فعل محذور ، أو ترك مأمور ، إذا فعل ما لا يجوز فعله ، أو ترك ما لا يجوز تركه ، فإن نفسه تلومه ، كأنما تضربه بسياط ، وهو ما نسميه في عصرنا (تأنيب الضمير) ، يعبرون عن النفس اللوامة بقولهم : (الضمير الحي) ، نحن في حاجة إلى هذه النفس اللوامة ، وهذا الضمير الحي .

وهذه النفس اللوامة إذا استمرت واستقرت على ذلك ، فإنها ترتقي إلى درجة أعلى ، وهي النفس المطمئنة ، وهي التي خاطبها الله بقوله : ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾

(الفجر:٢٧-٣٠)

استصحاب النية شرط لقبول العمل :

هذه من المعاني الربانية ، المحاسبة والمراقبة للنفس والعمل وبواعثه ، وهل استمر على ما يحب الله تبارك وتعالى ، أم أنَّ نيته تغيرت ، كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله ، حينما سُئل عن قول الله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (هود:٧)، قيل له : يا أبا علي ، ما أحسنُ العمل؟ قال : أخلصه وأصوبه . قيل : وما أخلصه وما أصوبه؟ قال : إن الله لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصا صوابا ، فإذا كان صوابا ولم يكُ خالصا لم يُقبل ، وإذا كان خالصا ولم يكُ صوابا لم يُقبل ، وخلوصه أن يكون لله ، وصوابه أن يكون على السنة[١].

وفي الصحيحين عن عائشة ، عن النبي ﷺ : « مَن عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » . « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »[٢]. « إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة »[٣]. من هنا يجب أن يُحاسب الإنسان نفسه .

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٩٥/٨) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، اللفظ الأول رواه البخاري، والثاني مسلم ، عن عائشة .

(٣) رواه أحمد (١٧١٤٤) وقال مخرجوه : حديث صحيح، وأبو داود في السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٦) وقال : حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة (٤٣)، وابن حبان في المقدمة (٥)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٠)، عن العرباض بن سارية .

هل تعني الربانية عصمة الإنسان ؟

هل هذه المعاني الربّانية ، تعنى أنَّ الإنسان الرباني إنسان معصوم من الخطأ والخطيئة؟ هل هو ملَك مطهر؟ أو نبي معصوم؟ لا ، من المعلوم من الدين بالضرورة ، أن المعصومين هم الأنبياء والرسل ، عليهم جميعا صلوات الله وسلامه ، وأن المطهرين هم الملائكة ، أما الإنسان فكما قلنا : مخلوق من طين وروح . فلا غرو أن يقع في المعصية ، ولكنه إذا وقع في المعصية سرعان ما يتوب إلى ربه ، كما قال النبي ﷺ :« كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون »[1].

لهذا ينادي الله عباده التائبين بقوله : ﴿ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر:٥٣)، وانظروا إلى قوله ﴿ يَـٰعِبَادِيَ ﴾ لم يحرمهم شرف الانتساب إليه ، لم يحرمهم من عبوديته ، ﴿ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ .

---

(١) رواه أحمد (١٣٠٤٩)، وقال مخرجوه : إسناده ضعيف، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩) وقال : حديث غريب، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥١)، والحاكم في التوبة والإنابة (٧٦١٧) ، وحسنه الألباني في الجامع الصغير (٤٥١٥)، وقوى إسناده الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام صـ ٣٧٥ عن أنس .

التوبة مطلوبة من الجميع :

كل الناس مدعوون للتوبة ، ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (النور:٣١)، كل المؤمنين مدعوون إلى التوبة ، وجاء في الحديث : « يا أيها الناس توبوا إلى الله ، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة »[١]. رسول الله ﷺ الذي لم يغفل عن ربه طرفة عين في حركاته أو سكناته أو غدواته أو روحاته ، كان إذا نامت عيناه فإن قلبه لا ينام ، وكان مع الله في كل حال ، ويذكر الله على كل أحيانه ، ومع ذلك يقول : « توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة » .

هناك من يتوب من الشرك ، ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

(الأنفال:٣٨).

وهناك مَن يتوب من الكبائر ، كما قال تعالى بعد أن ذكر الشرك وقتل النفس بغير الحق والزنا ، بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢)، وأحمد (١٧٨٤٨)، وأبو داود في الصلاة (١٥١٥)، عن الأغر بن يسار .

إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان:٦٨-٧٠).

وهناك من يتوب من الصغائر ، ومَن يتوب من الشبهات ، ومن يتوب من مجرد الغفلة لإحساسه بالتقصير ، وهذه توبة النبي ﷺ ، فهو يُحس أنَّ حق الله أعظم مما يؤديه ، فيشعر دائما بالتقصير ، فيتوب إلى الله ويستغفره تبارك وتعالى ، كما في الحديث « يا أيها الناس ، توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة». فكل الناس مدعوون إلى التوبة ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ (التحريم:٨).

ليس عجيبا أن يُذنب ابن آدم ، وإنما العجيب أن يتمادى في الذنوب والعصيان ، آدم عليه السلام نفسه قد أخطأ ، وأكل من الشجرة ، وقد قال له الله : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ (البقرة:٣٥،٣٦)، وكما قال الله : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه:١٢١،١٢٢)، وقع آدم في

المعصية ، ولكن سرعان ما رجع إلى ربه ، تائبا نادما ، قائلا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (الأعراف:٢٣) ، فكل ذنب قابل للتوبة ، والتوبة تمحو الذنوب ، كما يمحو الماء الدرن ، الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة:٢٢٢)، فلا يمكن أن يرد الله تائبا ، ليس على باب الله حاجب ولا بوّاب ، إذا أذنبت وقلت : رب اغفر لي وتب على . فإن الله أهل لأن يتوب عليك ، ويفتح لك باب التوبة والمغفرة .

الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس :

الفرق بين آدم وإبليس ، أن آدم أذنب ، وسرعان ما ندم وتاب فتاب الله عليه ، ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:٣٧)، وانتهت هذه الخطيئة بالتوبة ، وليس كما يقول النصارى بأن خطيئة آدم ظلت معلقة في بني آدم إلى اليوم ، وإلى يوم القيامة وتحتاج إلى مخلص يُخلّصهم ، والمسيح قام بهذا ، والقرآن يقول : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾(طه:١٢١،١٢٢) ، أما إبليس لعنه الله فقد أذنب ولم يتب .

معاصي الجوارح ومعاصي القلوب :

ومعصية آدم غير معصية إبليس من وجه آخر . علماء السلوك قالوا : هناك معاصي الجوارح ، وهناك معاصي القلوب ، كما أن هناك طاعات الجوارح ، وهناك طاعات القلوب ، معاصي القلوب هي الأشد خطرا ، والأبعد أثرا ، معصية آدم عليه السلام ، من جنس معاصي الجوارح ، اشتهى الأكل فأكل من الشجرة ، لوسوسة إبليس وتزيينه ، ونسي أنَّ إبليس عدو له ولزوجه ، وأنَّ الله قد حذره منه ، وخدعه بالقسم ، حيث قاسمه وزوجه أنَّه لهما من الناصحين ، ولكنه سرعان ما أعلن التوبة ، ولجأ إلى ربه ، وتلقى من ربه كلمات فقالها ، فتاب الله عليه .

مشكلة إبليس أنَّ معصيته من معاصي القلوب ، الكبر والغرور بالنفس ، ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ (الأعراف:١٢)، ﴿ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٣٤)، فرق بين معصية تدفع إليها شهوة عارضة ، وبين معصية يدفع إليها استكبار عن أمر الله ، ورفض لحكم الله ، هذه معصية خطيرة ، ولذلك انتهت بطرده من رحمة الله ، ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (الأعراف:١٨).

وهذا ينبغي أن نأخذ منه درسا في الحذر من معاصي القلوب ، أن نحذر من معاصي القلوب ، وهذا ما جعل الإمام الغزالي في الربع الثالث من كتابه (إحياء علوم الدين) ، يحمل على معاصي القلوب، ويسميها (المهلكات)، وذلك لخطرها وبُعد أثرها، وغفلة الناس عنها ، وفي الحديث عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ قال : « ثلاث مهلكات ، شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه »[1]. فلنحذر هذه المهلكات على أنفسنا ، أخطر الأشياء أن تصاب بهذه المهلكات ، الحالقة ، لا تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين .

---

(١) رواه البزار في مسنده (٧٢٩٣)، والطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (١٦٠/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان باب في الخوف من الله (٧٤٥)، عن أنس بن مالك . وقال الألباني : في صحيح الترغيب والترهيب (٤٥٣) : حسن لغيره، وقال المنذري في الترغيب والترهيب باب الترغيب في الأذان وما جاء في فضله(٦٥٤) : هو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى .

وفي الختام أقول :

أيها الإخوة والأبناء: هذه هي بعض معالم الربانية، التي نريدها، ولا يمكن أن تستقيم حياتنا إلا بهذه المعالم الربانية ، لا بد أن نربي أنفسنا عليها ، ونأخذ أنفسنا بها ، ونكون أيقاظا لها ، ونجاهد حق الجهاد في هذا الأمر ، حتى تزكو الأنفس ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ (الأعلى:١٤،١٥) ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس:٩،١٠)، وكما قال الله على لسان سحرة فرعون لما خالط الإيمان قلوبهم : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾(طه:٧٤-٧٦). لا تستقيم الحياة إلا بهذه المعاني، يسمّيها الناس تصوفا ، يسمّونها سلوكا ، يسمُّونها ما يسمُّونها .

جناية المصطلحات على الحقائق :

سماحة الشيخ أبو الحسن في كتابه (ربانية لا رهبانية) ، ذكر قضية مهمة ، وهي جناية المصطلحات على الحقائق[1]، بعض

---

(١) ربانية لا رهبانية صـ ٨

الناس من أجل مصطلح شائع ، أو كلمة أو تسمية خاطئة ، يرفض حقائق لا ريب فيها ، فمن أجل أنَّ هناك بعض المتصوفة المبتدعة ، أو المنحرفة ، أو المرتزِقة ، يرفض من أجل ذلك التصوف كله ، لا ينبغي هذا ، وبعض هؤلاء ينتسبون إلى مدرسة شيخ الإسلام (ابن تيمية) وتلميذه (ابن القيم) .

مع أن شيخ الإسلام رحمه الله ، من الناحية النظرية كتب في التصوف ، فهناك جزءان في مجموعة فتاويه[1]، جزء تحت عنوان : (التصوف) ، وجزء آخر تحت عنوان : (السلوك) ، وكان رحمه الله من الناحية العملية رجلا ربانيا ، ذواقة للمعاني الروحية ، حينما أُدخل سجن القلعة ، قال وقد رأى سور السجن الذي سيسجن فيه ، قرأ قول الله تعالى : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ (الحديد:١٣)، ولما حدَّثه بعضهم في هذا ، قال رحمه الله : المحبوس من حُبس قلبه عن ربه ، والمأسور من أسره هواه[2]. وقال لما هُدِّد بالسجن : ماذا يصنع أعدائي بي ، إنَّ جنَّتي في صدري ، إنْ سجنوني فسجني خَلوة ،

---

(١) وهما الجزآن العاشر والحادي عشر .

(٢) انظر : ذيل طبقات الحفاظ لابن رجب (٤٠٢/٢) .

وإن نفوْني فنفيي هجرة ، وإن قتلوني فقتلي شهادة . هكذا كان رحمه الله .

وكان تلميذه ابن القيم رحمه الله،أكبر اهتماما منه بعلم السلوك، وله عدة كتب في هذا المجال ، مجال فقه السلوك ، مثل كتابه : (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) ، وعبر عنه أحيانا باسم : (الداء والدواء)، وكتابه :(عُدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين)، وكتابه : (روضة المحبين)، وأعظم كتبه كتاب : (مدارج السالكين شرح منازل السائرين إلى مقامات إياك نعبد وإياك نستعين) .

وكان رحمه الله من الذواقين الربَّانين ، وحياته تدل على ذلك ، وأقواله وأفعاله ، فلا ينبغي أن ينتسب إلى هؤلاء مَن يرفض التصوف جملة وتفصيلا ، نحن نقبل التصوف ، وكما قال بعض العلماء : نحن نريد أن نُسَلِّف الصوفية ، وأن نُصوِّف السلفية . فأكثر السلفية إلا ما رحم ربي ، فيهم جمود وجفاء ، ليس فيه العاطفة الندية ، ولا الروحانية الربَّانية ، فهؤلاء في حاجة إلى روحانية القلوب ، وعاطفية التصوف . والمتصوفة فيهم تسيب وتساهل ، يحتاجون إلى انضباط بالقرآن والسنة وأحكام الشرع .

فنحن في حاجة إلى هذا التقعيد ، نصوِّف السلفية نسلِّف الصوفية ، وهذا هو المنهج الذي ندعو إليه .

وأقول للإخوة الذين ينفرون من كلمة (التصوف) ، لما اقترن به من مبتدعات فكرية وسلوكية ، لا تكونوا أسرى الألفاظ والمصطلحات ، فقد قال علماؤنا : لا مشاحة في الاصطلاح .

ولكن العبرة بالمضمون ، وما يحويه من قيم ومفاهيم ، وليس كل تصوف مبتدعا ، بل هناك تصوف سني ملتزم . فلنسمه (التزكية) أو (الإحسان) أو (التقوى) أو (الاستقامة) ، أو نحو ذلك ، ولنأخذ خير ما فيه ، ولندع شر ما فيه .

يا أيها الإخوة والأبناء : ما أحوجنا إلى هذه الربانية ، وما أحوجني قبلكم إليها ، لا تظنوا أني من الربانيين ، بل أنا من المقصِّرين في جنب الله ، والمفرطين في حق الله ، وأسأل الله تعالى أن يغفر لي ما لا تعلمون ، أسأله تعالى أن يتوب علينا توبة نصوحا ، وأن يجعلنا من الذين يتعلمون فيعلمون ، ويعلمون فيعملون ، ويعملون فيُخلصون ، ويُخلصون فيُقبَلون ، إنَّه نعم المولى ونعم النصير .

أقول قولي هـذا ، وأستغفر الله تعـالى لـي ولكـم ، وصـلى الله وسـلم علـى سـيدنا ونبينـا وإمامنـا وحبيبنـا محمـد ، وعلـى آلـه وصحبه أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الربانية أبرز خصائص التربية الإسلامية	٣
زياراتي لندوة العلماء بالهند.....	٤
الفرق بين التربية التعليم.....	٥
صلاح الأفراد والمجتمعات بتغيير النفس.....	٥
التعليم والتزكية من مهمة النبي ﷺ.....	٦
التزكية في اللغة العربية.....	٧
التربية ضرورية لتنهض الأمة.....	٨
تلاميذ المدرسة المحمدية.....	٨
خصائص التربية الإسلامية.....	١١
أبرز خصائص التربية الإسلامية الربانية.....	١١
ماذا تعني الربانية ؟.....	١٢
استشعار رقابة الله عز وجل.....	١٣

الشعور بمعية الله يجعل المسلم يقظ الحس..... ١٤
مصدر القوة في مواجهة الأعداء..... ١٤
ثقة في وعد الله..... ١٥
الصدق مع الحق والخُلُق مع الخَلق..... ١٦
المؤمن دائم الرقابة على نفسه..... ١٧
رضا الله غاية الغايات..... ١٩
خُلق الكون للإنسان وخُلق الإنسان للرحمن..... ٢١
العبودية لله غاية الحرية..... ٢٢
الأدنى يخدم الأعلى..... ٢٣
الربانية ارتقاء بالإنسان..... ٢٤
ما الذي يهبط بالإنسان إلى حضيض البهائم ؟..... ٢٥
الغافلون أضل سبيلا من الأنعام..... ٢٦
الأنعام تقوم بمهمتها خير قيام..... ٢٦
عدو الإنسان الغفلة..... ٢٧

النفس الإنسانية في القرآن الكريم..... ٢٧
حاجة النفس إلى المحاسبة..... ٢٨
المؤمن يخاف الله ويحذر ذنوبه..... ٢٩
أشد أنواع الجهاد جهاد النفس..... ٣١
استصحاب النية شرط لقبول العمل..... ٣٤
هل تعني الربانية عصمة الإنسان ؟..... ٣٥
التوبة مطلوبة من الجميع..... ٣٦
الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس..... ٣٨
معاصي الجوارح ومعاصي القلوب..... ٣٩
وفي الختام أقول..... ٤١
جناية المصطلحات على الحقائق ٤١
الفهرس..... ٤٦